مجلة جامعة الأقصى (سلسلة العلوم الإنسانية) المجلد الحادي والعشرون، العدد الأول، ص61-89، يناير 2017
ISSN 2518-5810

# فلسفة الحكمة والفخر في شعر – مسكين الدّارمي

د. يونس إبراهيم أبو مصطفى *

## الملخص

تدور هذه الدّراسة حول فلسفة الحكمة في شعر مسكين الدّارمي، الشّاعر الأمويّ الزّاهد، المقدّم في قومه لشرفه وشجاعته، الّذي توافر في حكمه شيء من خصوبة التّجارب وتنوّعها؛ فهي مستوحاة من واقع حياته وحياة الآخرين، ومن ثقافته الفكريّة الّتي دعا من خلالها إلى مكارم الأخلاق بأسلوب وعظيّ تعليميّ، وهي ثقافة مستمدّ معظمها من ثقافة عصر ما قبل الإسلام، وقليل منها إسلاميّ، وهذا يعني أنّه لم يواكب التّطوّر الدّينيّ والحضاريّ في عصره إلا بقدر.

كما تدور هذه الدّراسة حول فلسفة الفخر عنده، إذ افتخر بنفسه، وحسبه، ونسبه، ولم يفتخر بدينه وتقواه، أي أنّه لم يفتخر بالدّيانة، وإنّما افتخر بالقبيلة، وهو بذلك يُجاري الأقدمين، وكذلك فعل عندما افتخر بكرمه وعفّته، ولكنّه أجاد وأبدع في فخره بعفّته، إذ واكب التّطوّر الّذي طرأ على هذه القيمة الخُلقيّة، فزادها عمقاً، وأكسبها النّموذجيّة الإسلاميّة.

## Abstract

This study revolves around the philosophy of wisdom in Muskyen recaps hair, the poet of the Umayyad Zahid, submitted in his people, to his honor and courage, who availability equivalents something of fertility tests and diversity, they are inspired by the reality of his life and the other life, and intellectual culture which called through which to morals style preaching and teaching, a culture that is derived mostly from the culture of pre-Islamic era, and few of them Islamic, and this means that it has not kept pace with the religious and cultural development of his time except to the extent. This study also revolves around the philosophy of pride with him, as proud himself, and ATP, and the rate, not proud of his religion and piety, that is not proud of religion, but proud tribe, which thus go along with the ancients, as well as he did when proud generosity and modesty, but shred and excelled in his pride Bafth , as it coincided with the evolution in this moral value, Fsadha deeper, the Islamic model gained.

* كلية التربية – جامعة بنغازي – بنغازي – ليبيا.

## المقدّمة:

الحمد لله أن أنزل الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، بلسان عربي مبين ، والصّلاة والسّلام على الرّسول الأمين، القائل: " إنّ من الشّعر لحكمة وإنّ من البيان لسحراً " وبعد.

**سبب الاختيار:** كثيرة هي الموضوعات الّتي تطرّق إليها الدّارسون والباحثون في الشّعر الأمويّ، الّذي نبغ فيه كثير من الشّعراء الّذين لم يتركوا موضوعاً إلّا وطرقوه كغيرهم من شعراء ما قبل الإسلام، ولكنّها قليلة عند أحد شعراء قبيلة تميم، الشّاعر المقلّ مسكين الدّارميّ ربيعة بن عامربن أُنيف ابن شريح بن عمرو بن زيد بن عبد الله بن عُدُس بن دارم (ت 89 ه) من أهل العراق يَفِد بين الفينة والفينة إلى دمشق مادحاً خلفاءها آملاً قضاء حوائجه، أمويّ الولاء والهوى، كان يُدعى مسكيناً وهو الفتى الغنيّ، وهو من الشّعراء العاشقين لألقابهم، فكثيراً ما يردّده في شعره لكنّه لم يقصد المعنى الدّلاليّ، إذ هو في قصائده سيّد من السّادة، سليل النّسب العريق، يتحلّى بكلّ الشّيم والصّفات الأخلاقيّة شبه المثاليّة، فهو يقول: (مسكين الدارميّ، 1970: 25)

**سُمِّيتُ مِسكيناً وَكانَتْ لجَاجةٌ وإنِّي لمَسِكينٌ إلى اللّهِ رَاغِبُ**

كان شاعراً شريفاً، طموحاً، مجيداً، مقلّاً، مقدّماً في قومه لشرفه وشجاعته، تتجلّى مكانته من صلاته الوثيقة بخلفاء العصر الأمويّ وأمرائه، أمثال: معاوية بن أبي سفيان، وابنه يزيد، وزياد بن أبيه وغيرهم(يُنظر، الأصفهانيّ، 1992: 221/20، والمرتضيّ، 1954: 471/1، والبغداديّ، 1967: 60/3).

امتاز برقة الألفاظ، وحسن المعنى ووضوح الغاية، لم يذكر ديوانه أيّاً من كتب الأدب على الرّغم من اعتناء أهل اللّغة بشعره واستشهادهم النّحوي به، وذلك عائد لقلّته.

اشتهر بالزّهد، وكانت الحكمة أهم أغراضه ، يليها الفخر والحماسة.

لذا رأيت أن أدرس فلسفة الحكمة والفخر عند هذا الشّاعر، الّذي عاش في عصر تتجاذبه صراعات عنيفة على السّلطة بين أربعة أحزاب على رأسها الحزب الحاكم حزب بني أميّة، الّذي سخّر الشّعراء لإثبات حقّه في الخلافة، إذ رأى خلفاء بني أميّة أنّهم خلفاء الله في الأرض، فهو من ناحية زاهد في ظل مجتمع إسلاميّ انتشر فيه الزّهد عند الكثير، وقلّة ساروا في تيار المجون والتّرف، ومن ناحية أخرى هو سيّد في قومه يعتزّ بهم وبنفسه، ولاؤه لبني أميّة، ولا ضير في ذلك، ولكنّ المرء يتساءل لِمَ أراق الرّجل ماء وجهه لطلب العطاء من الخليفة معاوية؟ ( يُنظر،

الأصفهانيّ، 1956: 20/ 223 – 224)، أهو بحاجة إلى العطاء؟ أم أنّه يجاري شعراء عصره للحصول على المزيد من العطاء لتحقيق أهداف ماديّة ومعنويّة؟ ألا يجدر به أن ينأى بنفسه عن ذلك، ويربأ بها إلى مصاف السّادة الشّرفاء الّذين يعتزّون بكرامتهم ومكانتهم بخاصّة أنّه ساق حكماً في الزّهد والأخلاق تصلح أن تكون دروساً تربويّة أخلاقيّة، ثمّ إنّه اعتزّ بنفسه، فهو لا يدخل بيوت النّاس لفاقة، ولا يسأل النّاس مالهم بشعره، ولا تعمى عليه المكاسب، أهذا تناقض؟! كما اعتزّ بقومه في ظل عودة العصبيّات المريرة الّتي أطلّت بوجهها البشع في عصر بني أميّة، وهل كان تعصبّه إيجابياً– إن صحّ التّعبير– كما في عصر ما قبل الإسلام في إطار قانون انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً؟ أم هو تقليد لشعراء عصره وفي نطاق ضيق لشعراء قبيلته، بل عشيرته الأقربين دارم، كما فعل الفرزدق في نقائضه مع جرير؟، أم هو التزام بسنن الشّعراء آنذاك؟ كيف ذلك، وقد بيّن في إحدى حكمه أنّ الصّدق عنده أفضل من الفخر بالحسب والنّسب؟ في مثل قوله: (مسكين الدّارمي، 1970: 23)

**الصّدقُ أَفْضلُ شَيءٍ أَنتَ فَاعِلُهُ لا شيءَ كالصِّدقِ لا فخرٌ ولا حَسَبُ**

ولِمَ اكتفى بالفخر بالنّسب والحسب ، ولِمَ يفتخر بالدّيانة؟

هل واكب التّطوّر الدّينيّ والحضاريّ في حكمه؟ وهل توافر في حكمه خصوبة التّجارب وتنوّعها؟ وهل اعتمد على الموروث القديم، وسار على نهج الأقدمين، أو واكب التّطوّر الدّينيّ والحضاريّ في عصره؟ وما الهدف من الحكمة عنده؟ وما الأسلوب الذّي اعتمد عليه في صياغتها؟ وهل كان فخره استجابة للفطرة الإنسانيّة؟ هل كان جواداً صدّق عمله قوله؟ وهل واكب التّطور الدّينيّ في فخره بعفّته؟

**أهمية الدّراسة:** هذه هي تساؤلات الدّراسة نحاول جاهدين الإجابة عنها، وكشف النّقاب عن أسرارها وفلسفتها من خلال دراسة فلسفة الحكمة والفخر عند شاعرنا.

**الدّراسات السّابقة:** أغلب الظّن أنّ أحداً من الدّارسين والباحثين لم يتطرّق بشكل مفصّل لهذا الموضوع اللّهمّ إلا بعض الشّذرات عند د. شوقي ضيف في كتابه : العصر الإسلاميّ، و دراسة د. عبد الرّؤوف النّويهيّ، مسكين الدّارميّ وحقوق المرأة، وقد تكون ثمّة دراسات عن هذا الشّاعر لم يصل إليها قلمي.

**خطوات البحث:** ينقسم البحث إلى مبحثين:

تناول المبحث الأوّل- الحكمة في شعره، والمبحث الثاني- فخره، يسبقهما مقدّمة، ويليهما خاتمة، والمصادر والمراجع.

ولعلّ أهم المصادر الّتي اعتمد عليها البحث: كتاب الأغاني، لأبي فرج الأصفهانيّ، وخزانة الأدب للبغداديّ، وديوان الشّاعر مسكين الدّارميّ.

**منهج البحث:** اعتمد البحث على المنهج الوصفيّ في وصف شعر الحكمة والفخر لدى شاعرنا، وتحليله والتّعمّق في أغواره ؛ لنخرج بالإجابة عن تساؤلات الدّراسة.

أرجو أن يكون هذا الجهد إسهاماً متواضعاً ينتفع به الدّارسون، وما التّوفيق إلا بالله، عليه توكّلت وإليه أنيب.

## المبحث الأوّل: الحكمة في شعر مسكين

### مفهوم الحكمة لغة :

حَكَمَ يَحْكُم حكماً بينهم؛ أي قضى وحَكَمَ له وحَكَمَ عليه والحُكْمُ أيضاً: الحِكمة من العلم، والحَكِيمُ: العالم، وصاحب الحكمة، والحَكِيمُ: المتقن للأمور وقد حَكُمَ؛ أي صار حكيماً.

قال النّمر بن تولب:

**وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ بُغْضاً رُوَيداً إذا أَنتَ حاوَلتَ أَن تَحْكُما**

قال الأصمعيّ:" أي إذا حاولت أن تكون حكيماً" (يُنظر، الجوهريّ 1984: 5 /1901) .

والحكمة العدل، ورجل حكيم عدل، وأحكم الأمر أتقنه، لذا يُقال للرجل إذا كان حكيماً قد أحكمته التّجارب، والحكيم المتقن للأمور، وأصل الحكمة المنع، فهي بمنزلة المانع من الفساد ( يُنظر، ابن منظور، بلا تاريخ: مادة (حكم) 15 / 30 – 32)، و" الحكمة العمل مع العمل "(الجرجانيّ، 1996 : 123)، وهذا يعني أنّها تعني بشكل عام الإصابة في العلم والعمل، فالحكيم هو البصير بوضع الأمور في نصابها بإتقان، " الكلام المعقول المصون عن الحشو"، " وتعلّم الحلال من الحرام " (الجرجانيّ، 1996: 123).

### مفهوم الحكمة اصطلاحاً:

إنّ التّطوّر الدّلاليّ تفرّع إلى جداول كثيرة، وظلّ مرتبطاً بالنّبع: العلم، والمعرفة، والمنع من الفساد. وقد جاء في تعريفاتها: "معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم".(نصر الله، 1927 : 30).

وهي تعني في نظر العلماء " فضيلة النّفس النّاطقة " (ابن مسكويه، 1981: 18) ، أو" فضيلة القوّة العقليّة "(الغزاليّ، 1946: 264)، ويندرج تحتها عدد من الفضائل: " الذّكاء، الذّكر، التّعقل، جودة الفهم، صفاء الذّهن، سهولة التّعليم" (ابن مسكويه، 1981: 19).

والحكمة الأدبيّة كلمات قصيرة موقّرة بالمعنى توافق للحقّ وتؤلّف قانوناً ذاتيّاً وجدانيّاً يضيء نفس المرء بإشراقات توجيهيّة، ويدفعه نحو الخير، ويسوّره بالإنسانيّة، وأدب الحكم هو فن كلامي (نثر أو شعر) موافق للحقّ في مضامينه يرسله صاحبه بعد تأمل ليعبّر عن حقيقة حياته (نصر الله، 1927: 35)، فهي عبارة موجزة تقوم على فكرة سديدة تصدر عن رجل مجرّب، وتتميّز بالدّقة في التّعبير، وتحمل التّوجيه والنّصح ويتحرّى قائلها الخير والسّداد.

**الحكمة في عصر الإسلام وما قبله:**

كانت الحكمة في عصر ما قبل الإسلام ثمرة تجارب طويلة وفطنة، ونظر ثاقب وبصيرة بالنّاس وأخلاقهم، وقد كان هدفها سن نظم خُلقية يتبعها النّاس فيما يرضونه من خصال وسلوك أو ما ينكرونه من أفعال وعادات، لذا جاءت حكمهم حقائق مجرّدة في متناول الفطرة السّليمة تمليها التّجربة والمشاهدة وفق مثلهم العليا الّتي آمنوا بها آنذاك( يُنظر، د. الجبوريّ، 1993: 220)، فهي تكاد تكون جامعة للقيم الخُلقيّة، وقد كانت أحياناً تتحوّل إلى ضرب من الفلسفة الأخلاقيّة تؤثّر في فلسفة السّلوك الإنسانيّ( يُنظر، المثقّب العبديّ، 1971: 82– 83، وحاتم الطّائيّ، 1953: 118 وعبيد بن الأبرص، 1964: 67 – 68، وعدي بن زيد، 1965: 104)، وربما تتحوّل إلى لون من النّصائح تُساق بأسلوب وعظيّ كما فعل زهير بن أبي سلمى، الّذي خبر الحياة وأخلاق النّاس وميولهم ونوازعهم (يُنظر، زهير بن أبي سلمى، 1960: 86– 87).

كان من الطّبيعي أن ترتبط الحكمة بالدّين الجديد، وأن تتطوّر، فقد فتح لها مجالاً واسعاً لنموها، والدّعوة إلى مكارم الأخلاق الّتي كانت متأصّلة في نفوس العرب قبل الإسلام، وقد اكتسبت النّموذجيّة باتّصالها بالإسلام لأنّه منحها الامتداد والعمق؛ لأنّها موصولة بالكمال الإلهيّ المطلق، لذا كان لها دور فعّال في حياة الإنسان في المجتمع العربيّ المسلم، هذا يعني أنّها أصبحت وثيقة الصّلة بالدّين، معبّرة عن الأخلاق، لأنّها تدعو إلى تنظيم علاقات المجتمع الإسلاميّ الجديد على ركائز أخلاقيّة ثابتة.

**الحكمة عند مسكين:**

كان شاعرنا واحداً من شعراء الزّهد في العصر الأمويّ، الّذين دعوا إلى الخوف من الجليل، والعمل بالتّنزيل، والرّضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرّحيل، يقول: (مسكين الدّارمي، 1970، 25).

**سُمِّيتُ مِسْكيناً وَكانَت لجَاجةُ وإنّي لمَسكينٌ إلى اللّهِ راغِبُ**

وذكر أنّه راضٍ بقضاء الله – ﷻ – وما قُدّر له، وأنّ الله لابُدّ أن يكشف غمته: (مسكين الدّارميّ، 1970، 31)

**ما أَنزلَ اللّهُ من أمرٍ فأَكرهُهُ إلا سَيَجْعَلُ لي من بَعدِهِ فَرَجا**

ومن مستحسن شعره قوله: (مسكين الدّارميّ، 1970، 64)

**وَلَسْتُ إذا ما سرَّني الدَّهرُ ضَاحِكاً ولا خاشِعاً ما عِشتُ من حَادِث الدَّهرِ**

**أَعِفُّ لَدى عُسْرِي وَأُبْدِي تَجَمُّلاً وَلا خَيرَ فيمَن لا يَعِفُ لَدى العُسْرِ**

**وَإنّي لأستَحْي إذا كنتُ مُعْسِراً صَديقي وَإخواني بِأَن يَعْلَموا فَقْري**

من عباءة هذا الزّهد، ومن بوتقة تلك العفّة المستأصّلة وبما استضاء بما جاء في الذّكر الحكيم من مثاليّة خُلقيّة نبيلة كانت حكمه المستوحاة من واقع حياته وحياة الآخرين، ومن ثقافته الفكرية تدعو إلى مكارم الأخلاق بأسلوب وعظيّ تعليميّ، وهي ثقافة مستمدّ معظمها من ثقافة عصر ما قبل الإسلام ، وقليل منها إسلاميّ.

بيّن في إحدى حكمه أنّ المرء لا يُمدح إلّا بعد الاختبار، إذ قال: (مسكين الدّارميّ، 1970: 42)

**ولا تحمُدِ المرء قبل البَلاء ولا يَسْبِقُ السَّيلُ مِنْكَ المطَر**

**وإنّي لأعرفُ سِيَما الرِّجَالِ كما يَعْـرِفُ القائِفُـونَ الأثَرْ**

(الفائقون، جمع فائق، الذي يعرف آثار الأقدام بقوة فراسته، وكان العرب في جاهليتهم يفتخرون بهذا الضّرب من الأولاد).

هذه الحكمة تُعبّر عن سداد الفكر، وعمق التّجربة، وجمال التّعبير تتغذّى من سلطان العقل، وتتجمّل بصورة بلاغيّة، فيها حجّة وبرهان للتّأكد على وجاهتها، وصدقها؛ لتصل بالمتلقّي إلى حالة من الإقناع والاقتناع بهذه القضيّة، فقد جُمع في داخلها بين المقدّمة والنّتيجة في آن واحد، وكذا فعل في معظم حكمه، ولأنّه خبير بمعرفة الرّجال، طَبِن بريب الدّهر غير مغفّل، ركّز على اختيار الصّديق، فكلّ قرين بالمقارن يُقرن، يقول: (مسكين الدّارمي، 1970: 80)

**تَعَلَّمْ بِأَنَّ الأَصْدِقاءَ ثلاثةٌ وَما كُلُّ من آخَيتَهُ بِصَديقِ**

وقد حدّد الأصدقاء الثّلاثة: الأوّل: أصفاهم وداً وهو أخو الطّبع، والآخر أكذبهم ودّاً وهو أخو الكأس، والثّالث المضطر بينهما، وكأنّه يدعو بأسلوب وعظيّ تربويّ تعليميّ إلى مصاحبة الأوّل لأنّه موثوق به في أموره كلّها، ويحثّ على مقاطعة الآخر، والتّعامل مع الأخير بحذر اقتراباً وجفاءً، فهو يغوص في أعماق الطّباع، ويصف الوضع بعقل راجح، وفكر نيّر.

ودعا في حكمة أخرى إلى مصاحبة الأخيار مستعيناً بصورة بلاغية أثرت المعنى، ووضّحت المراد، وأضفت على الأسلوب رونقاً وجمالاً، فقد شبّه بعض الأصحاب بأنّهم، مثل: داء الجرب (مسكين الدّارمي، 1970: 19).

**اصحبِ الأَخيارَ وارغبْ فيهمُ رُبَّ من صَحِبْتَهُ مثلُ الجربْ**

وما أدري وسوف أخال أدري أستفاد من قول الرّسول – ﷺ– في قوله: " مثل الجليس الصّالح والجليس السّوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إمّا أن يُحذيك وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيبةً، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة"؟ (صحيح البخاري، كتاب الذّبائح (31 باب المسك) – 5533، 1407 كتاب البيوع (38 باب في العطار وبيع المسك) 2101، 2002: 506).

أم من قول عدي بن زيد، إذ قال في مجمهرته: (أبو زيد القرشيّ، 2012: 179)

**عَنِ المَرءِ لا تَسأَل وَسَل عَن قَرينِهِ فَكُـلُّ قَرينٍ بِالمُقـارِنِ يَقتَـدِي**

أغلب الظّنّ أنّه استفاد وأفاد.

وحذّر مسكين في حكمة أخرى من مصاحبة الأحمق في قوله:(مسكين الدّارميّ، 1970: 77).

**اتَّقِ الأَحْمَقَ أن تَصْحَبهُ إنّمـا الأحَمـقُ كالثَّوبِ الخَلِقْ**
**كُلّما رقَّعْتَ مِنـهُ جَانِبَـاً حَرَكَتْـهُ الرّيـحُ وَهْناً فانخَرَقْ**
**أو كَصَـدْعٍ في زُجـاجٍ فَاحِـشٍ هَلْ تَرَى صَدّعَ زُجاجٍ متَّفِقْ**
**وإذا جالَسْتَـهُ في مَجْلسٍ أَفْسَدَ المَجْـلِسَ مِنْـهُ بالخَـرَقْ**

الأحمق قليل العقل، فاسد الرّأي، يأتي بأعمال لا معنى لها، ويستحسن ما يستقبحه العقلاء، لذا لا يسوغ للعاقل الرّشيد صحبته لأنّه يسوء بحمقه، ولا يعرف رضاه من غضبه، وقد أجاد الشّاعر إذ أتى بتشبيهات واضحة مألوفة وكأنه يُخاطب الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون بكلام وجدانيّ سلس يضيء

نفوسهم بإشراقات توجيهيّة، يدفعهم نحو الخير والحقّ، ويسورّهم بالإنسانيّة، إذ شبّه الأحمق بالثّوب الخَلِق، الّذي كلّما حرّكته الرّيح ينخرق، كما شبّهه بالزّجاج المتصدّع الّذي لا يلتئم.

هذه النّزعة الأخلاقيّة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بنزعته العقليّة " لأنّ العقل يقود إلى التّأمل، والتّأمل يقود إلى التّفكير الصّحيح، والرّأي الصّائب، وهنا يدخل الشّاعر في ميدان الأخلاق ليرى مثلها العليا ويدعو لها " ( د. سيد حنفي، 1971: 173).

ومن جميل حكمه دعوته إلى الأخذ بالأسباب بأسلوب منطقيّ ، حيث المقدّمة والنّتيجة ، والحجّة والدّليل والبرهان، قال بعد أن قدم على معاوية سائلاً إيّاه أن يفرض له، فأبى (مسكين الدّارميّ 1970: 33– 34).

**أَخَاكَ أَخَاكَ إنَّ من لا أَخاً لَه كَسَــاعٍ الى الهَيْجــا بغيــر سلاحِ**
**وإنّ ابنَ عمٍّ المرءِ فاعلَمْ جَنَاحُه وَهَــلْ ينَهَــضُ البَازِي بغيــرِ جَنَاحِ**
**وَما طَالِبُ الحَاجَــاتِ إلّا معذَّباً وَمــا نَـــالَ شيئاً طَالبٌ لِنَجَاحِ**
**لحا اللّهُ من باعَ الصَّديقَ بِغَيـرِهِ ومــا كلُّ بَيعٍ بِعْتَـهُ بِرَباحِ**
**كَمُفْسِـدِ أَدنَـاهُ ومُصلِـحِ غيــرِهِ وَلَم يأتَمــر في ذاك غيرُ صلاحِ**

لقد كان " فيما يبدو شاعراً طموحاً يسعى لوصول مجد سلفه بخلفه، موظّفاً موهبته الشّعريّة أحسن توظيف كي يرقى على سلّمه الشّعريّ إلى مكانة اجتماعيّة مرموقة، ترفده بمدد ماديّ يسدّ حاجته من المال " (مسكين الدّارميّ، 1970: 23).

وقد حقّق مراده، فمن شهادات العلماء بشعره ، قول ابن رشيق في العمدة: " إنّما هذا لمكان الشّعر في قلوب العرب، وسرعة وُلوجه في آذانهم، وتعلّقه في نفوسهم" (ابن رشيق: 2006: 1/ 40).

وجميل أن يدعو مسكين بأسلوب حكميّ إلى الصّدق ويحذّر من الكذب، إذ يقول: (مسكين الدّارميّ، 1970: 23)

**إنَّ الكَرِيمَ إذا ما كانَ ذا كَذِبٍ شــانَ التَّكَــرُّمَ مِنْــهُ ذلكَ الكَذِبُ**
**والصِّدْقُ أَفْضَـــلُ شَيْءٍ أَنتَ فاعِلُهُ لا شَيْءَ كالصِّدْقِ لا فَخْرٌ ولا حَسَبُ**

لكن كيف ذلك؟! وهو الّذي لا يسأل النّاس مالهم بشعره، وقد فعل طالباً العطاء من الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وقد تحقّق له ذلك.

وعن الحلم والغضب قال: (مسكين الدّارميّ، 1970، 22)

**لَيْسَتِ الأَحلامُ في حَالِ الرِّضَا إنَّما الأَحلامُ في حَالِ الغَضَبْ**

وبيّن أنّ العبرة ليست في الأسماء في قوله: (مسكين الدّارميّ، 1970: 73)

**إنْ أُدْعَ مِسْكيناً فَلسْتُ بمُنكَرٍ وهل يُنْكِرَنَّ الشَّمْسُ ذَرَّ شعَاعُها**

**لَعمْرُكَ ما الأسماءُ إلا علامـةٌ منــارٌ ومن خيرِ المنــارِ ارتفاعُهـا**

يؤكّد ما ذهب إليه بأساليب مختلفة، حيث الاستفهام (هل)، والقسم (لعمرك)، والاستثناء ( إلّا ) ليقيم الحجّة والبرهان ليلامس كلامه شغاف القلوب والعقول، ليعتبر أولي الألباب.

وأحسن ما قيل في الغيرة كما قال الأصمعي قول مسكين بأسلوب حكمي فيه إقناع وتسليم بالقضيّة المطروحة (مسكين الدّارميّ، 1970: 43 – 44).

**أَلا أَيُّها الغَائِرُ المُسْتَشِيْطُ عَــلامَ تَغــارُ إذا لم تُغَــزْ**

**فَمَــا خَيْــرُ عِرْسٍ إذا خَفْتَهــا ومــا خَيــرُ عِرْسٍ إذا لم تُزَرْ**

**تَغَـارُ على النَّـاسِ أن ينظُرُوا وهل يَفْتنُ الصَّالِحـــاتِ النَّظَرْ**

**فَإنِّي سأُخْلِي لَهَا بَيْتَهـا فتحفَظُ لـي نَفْسَهَـا أو تَــذَرْ**

**إنِ اللهَ لم يُعْطــهِ ودَّهــا فلـنْ يُعْطَنِي الـوُدَّ سـوْطٌ مُمــرّ**

**يَكَــادُ يَقْطَــعُ أَضلاعَــه إذا مــا رأى زائــراً أَو نَفَــزْ**

**فَمَن ذا يُراعي لــه عِرْسَه إذا ضَــرّهُ و المطــي السَّفَــرْ**

تعالج هذه الأبيات مشكلة يبدو أنها تفشّت آنذاك – على أقل تقدير في البيئة المحيطة بشاعرنا– وهي المبالغة في الغيرة، مما دفعه إلى الدّعوة إلى علاجها، وهي دعوة صريحة للاعتدال في الغيرة بالحجّة والبرهان، حفاظاً على كرامة المحصنات العفيفات.

ومن نافلة القول: إنَّ الغيرة صفة متأصّلة في نفس المرء بالفطرة السّليمة الّتي فطر الله – ﷻ – النّاس عليها، وهي خُلق عربي أصيل، ارتفع به الإسلام آفاقاً عالية، وقمماً شامخة، وقد كان العرب في عصر ما قبل الإسلام يَعُدّون المرأة ذروة شرفهم وعنوان عرضهم، لذا تفنّنوا في حمايتها والحفاظ عليها والدّفاع عنها؛ حتّى يظل شرفهم سليماً من الدّنس ويبقى عرضهم بعيداً من أن يمس، فقد كانت النّسوة آنذاك كالبيض المكنون.

إنّ الغيرة مطلوبة وضرورة ملّحة، وكذا الحفاظ على المرأة وكرامتها وعفّتها، ولا غرو في ذلك، إنّما العيب في الشّك وسوء الظّن، وهي من طبيعة الحياة الزّوجية، ولكن يجب أن تكون بمقدار، فإذا

قلّت وتيرتها تبرد الحياة وتُمسخ، وإذا ازدادت كانت مفتاحاً للنكد، وربما الطّلاق. لذا استهجنها الدارميّ، واستقبح وقوعها في غير محلّها، ولا نظنّ أنّه يدعو إلى التّهاون فيها كما ذهب صاحب كتاب الأشباه والنّظائر، إذ قال في تعليقه على الأبيات السّابقة: "وما نعلم أنّ أحداً من الشّعراء سهّل الغيرة غير هذا ونظنّه يقول بالإباحيّة، وإلّا فأيّ شيء دعاه إلى هذا القول الّذي يأنف منه الأحرار " (الخالديان، 1965: 1 / 63).

إنّ شاعراً شريفاً طموحاً، سيّداً شجاعاً، ناسكاً متعبّداً في آخر حياته لا يقبل بأي حال من الأحوال التّساهل في مسألة جدّ حسّاسة ومهمّة كتلك، لا يقبل بها الأحرار الشّرفاء، لذا نقبل ما ذهب إليه د. عبد الرّؤوف النويهيّ، إذ وجد في الأبيات " ميثاق الشّرف للتّعامل بين الرّجل وزوجته، وحقوق المرأة المفروضة لها، وهي على أرقى مستوى من التّعامل الإنسانيّ، الّذي مازلنا نتعثر في الوصول إليه"، ونتحفّظ على باقي تعليقه، فقد ذكر أنّ " نظرة تحرّرية من أعماق التّاريخ ، ينادي بها الدّارميّ في القرن الأوّل الهجريّ أي القرن الثّامن الميلادي وتكأكأ الرّجعيون عليها قتلاً وتمزيقاً، لكنّها تظلّ استشراق النّفوس الفاضلة وهدف العقول المستنيرة وأرباب الأقلام الشّريفة "(النويهيّ، 2007: 1).

إنّ العلاقة بين المرء وزوجه علاقة مقدّسة قائمة على الاحترام المتبادل والثّقة النّابعة من قوّة الإيمان ومن المودّة والمحبّة، والغيرة المتّزنة المعتدلة عند أولي الألباب وأصحاب البصائر النّيّرة حفاظاً على الكرامة والحصانة والعفّة في ظل أسرة متماسكة تُعدّ نواة لمجتمع إسلاميّ مثاليّ تطوّرت فيه العفّة ووصلت إلى النّضج والكمال لأنّها موصولة بالكمال الإلهيّ المطلق ، وأغلب الظّن أنّ هذا ما ذهب إليه مسكين بأسلوب منطقيّ تربويّ سلس، أسلوب حضاري راقٍ يدركه الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون.

وله قصيدة بلغت أربعة وعشرين بيتاً في الغيرة ، فقد كان– كما قال المرتضيّ– كثير اللّهج بالقول في هذا المعنى (المرتضيّ، 1954: 1/ 476)، منها: (مسكين الدّارميّ، 1970: 50).

**وإنّي امرؤٌ لا آلفُ البَيْتَ قَاعِداً ... إلى جَنْبِ عِرْسي لا أُفارِقُها شِبرَا**
**ولا مُقْسِمٌ لا تَبْرَحُ الدَّهْرَ بَيْنَها ... لأجْعَلَهُ قَبْــلَ المَمَــاتِ لَهَــا قبرَا**
**إذا هي لم تُحْصِنْ أمامَ فنائِها ... فَليسَ يُنْجِّيها بِنائي لها قَصْرَا**
**ولا حَامِلَ ظَنِّي ولا قَالَ قائلٌ ... على غيرةٍ حتَّى أُحيطَ به خُبرَا**

وكأنّه يريد معالجة هذه القضية ، ويقدّم درساً تربوياً عمليّاً بالحجّة والبرهان، فعندما استهجن في الأبيات السّابقة موجّهاً كلامه للمبالغ في الغيرة، الّذي يراقب زوجه في أثناء وجوده، فمن يراقبها أثناء سفره؟، فهو– أي مسكين – امرؤ لا يألف القعود في البيت مع زوجه لمراقبتها، ولا يجبرها على المكوث في بيتها لا تبرحه حتّى لا يجعله لها قبراً قبل الممات، فإن لم تكن محصّنة لا يمنعها القصر المشيد من الزّلل، كما أنّه يؤمن بأنّ بعض الظّن إثم، حتّى يحيط بالخبر اليقين، ويتبيّن حتّى لا يصبح على ما فعل نادماً وكأنّه يؤكّد على الثّقة المتبادلة، والالتزام الأخلاقي لدى المرء وزوجه النّابع من الدّستور الرّبانيّ.

هل في ذلك دعوة إلى التّحرّر والتّهاون؟! هل في ذلك طعن للمحصنات اللائي يخرجن من بيوتهن يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ، ويضربن بخمرهن على جيوبهن، ولا يتبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى؟

إنّ شاعرنا لم يدعُ إلى التّحرّر ولا إلى التّهاون، فهو يستحسن الغيرة في حينها، ويستقبحها في كلّ وقت وحين، لأنّ الإكثار منها والمبالغة فيها قد يؤدّي إلى نتائج سلبية، فقد تُرمي الزّوجة بالسّوء وتكون بريئة، ويمقت الشّك القاتل والظّن الآثم، ويدعو هؤلاء إلى حثّ زوجاتهم على مكارم الأخلاق والالتزام الدّيني، وقد استعان بالطّباق في البيت الأوّل ليقرع أذهان السّامعين ويلفت انتباههم يقول:(مسكين الدّارميّ، 1970، 91) .

**ما أَحَسنَ الغَيْرَةَ في حِينهَا ... وَأَقبَحَ الغَيْرَةَ في كُـلِّ حِينْ**
**مَنْ لمْ يَزَلْ مُتَّهِماً عِرْسَـهُ ... مُناصِبـاً فيهـا لِوَهْمِ الظُّنونْ**
**يُوْشِـكُ أنْ يُغْرِيَـهـا بِالـذِي ... يَخـافُ أوْ يُنصبَهـا لِلعُيونْ**
**حَسْبُكَ مِنْ تَحْصينها ضَمُّهـا ... مِنـكَ إلى خُلْقٍ كَرِيمٍ وَدينْ**
**لاَ تَظْهَرَنَّ مِنـكَ على عَوْرَةٍ ... فَيَتْبَـعَ المَقْـرونُ حَبْـلَ القَرينْ**

إنّه يستحسن الغيرة في حينها، وفي ذلك تأكيد على أنّه لم يتهاون فيها، وأخلاقه لا تسمح له بذلك، وهو السّيد في قومه، ودينه يحثّه على العفّة المتأصّلة أصلاً في نفسه بصفته عربيّ، وقد افتخر بها وأجاد، فهو يدعو إلى الاتزان والموضوعية في الغيرة، ويستقبح المبالغة فيها، والإكثار منها، حفاظاً على كرامة المرأة المسلمة، وعلى الرّباط المقدّس بين المرء وزوجه في ظلّ علاقة قويمة قائمة على العفّة المتبادلة والالتزام الأخلاقيّ.

وكأنّ هذه الحكم تعرض جانباً من الفلسفة الأخلاقيّة، وتدور في إطار إنساني عام إذ سادت الرّوح الدّينية، بتأثير من أمشاج حكم من سبقوه، وثقافته الدّينية التّابعة من الدّستور الرّباني، وهي فلسفة تؤثّر في سلوك الإنسان في الحياة، وعلاقاته مع الآخرين، وكأنّ هذه الحكم تتحوّل إلى لون من النّصيحة بأسلوب وعظيّ تربويّ.

وفي إطار هذه الفلسفة الأخلاقية أدلى دلوه – كغيره من الشّعراء – بأسلوب حكميّ وعظيّ عندما تطرّق إلى هادم اللّذات ومصير الإنسان المحتوم، الّذي لا مفرّ منه في قصيدة ذكر فيها طائفة من الشّعراء، ناسباً قبر كلّ منهم إلى بلده، ومسقط رأسه، متّخذاً من ذلك العبرة، ومصغّراً من أمر الدّنيا، ومهوّناً من شأنها، حيث يقول: (مسكين الدّارميّ، 1970: 66 – 68).

**وَلَسْتُ بأحيا من رِجالٍ رأيتُهُم — لكلّ امرئٍ يوماً حِمَامٌ ومَصْرَعُ**
**دعا ضابئاً داعي المنايَا فَجَاءَهُ — ولما دعوا باسم ابنِ دارةَ أسْمَعُوا**
**وحصنٌ بصَحْراءِ الثَّوِيَّة بيتُه — ألا إنَّما الدُّنيا مَتاعٌ يُمتَّعُ**
**وأوسُ بن مَغْراء القُرَيْعيُّ قد ثَوى — لَهُ فَوْقَ أبياتِ الرِّياحِّيّ مَضْجَعُ**
**ونابغةُ الجَعْديّ بالرَّمْلِ بيتُهُ — عَلَيهِ صَفيحٌ من رُخامٍ مُرصَّعُ**
**وما رَجَعَتْ من حِميريٍّ عصَابةٌ — إلى ابن وَثيلٍ نَفْسَهُ حينَ تُنْزَعُ**
**أرى ابن جُعَيلٍ بالجزيرةِ بيتَهُ — وقد تَرَكَ الدُّنيا وما كان يَجْمَعُ**
**بنجرانَ أوصالُ النَّجاشِّيّ أصْبَحَتْ — تلُوذُ بِهِ طَيْرٌ عَكُوفٌ وَوُقَّعُ**
**وقد مَاتَ شَمَّاخٌ ومَاتَ مَرَزَّدٌ — وأيّ عزي– لا أبا لك – يُمْنَعُ**
**أُولئك قَوْمٌ قد مَضَوا لِسَبِيلِهِمُ — كَمَا مَاتَ لُقمانُ بن عَادٍ وُتُبَّعُ**

(حمام: الموت. ضابئاً: هو الشّاعر ضابئ بن الحارث البرجمي ابن وثيل: هو الشاعر المخضرم سحيم بن وثيل، هو من تميم. ابن جبيل: كعب بن جميل الثّعلبيّ، شاعر مخضرم).

وفي ذلك خطاب للدّاني والقاصي، للعاقل وغير العاقل أنّ كلّ نعيم لا محالة زائل، فعلى المرء أن يتزوّد فإنّ خير الزّاد التّقوى، ويؤكّد ما ذهب إليه في أبيات أخرى يقول فيها: (مسكين الدّارمي، 1970: 85)

**فإنّ يَبْلَ الشَّبَابُ فَكُلُّ شَيء — سَمِعْتَ بِهِ سِوى الرَّحْمَنِ بالِ**
**أَلا إنّ الشَّبابَ ثِيابٌ لَبْسٍ — وَما الأمْوالُ إلا كالظِّلالِ**

**وَما أدري وإن جامَعْتُ قومــاً أَفيهم بُغْيَتي أَم في الزِّيالِ**
**وَحاملـــةٌ وَمــا تَدري أَفيــهِ يَكون نَجَاحُها أَم في الحِيالِ**
**لَعلّـكَ يا ابن فَـرْخِ اللوْم تَرْجُو زَوالَ الرَّاسيـــاتِ مِنَ الجِبَـــالِ**
**فإنَّكَ لَنْ تَنــالَ المَجْـدَ حَتَّى تــردَّ الماضيـــاتِ مِنَ اللَّيالي**

( الزّيال، الزوال. الحيال: العقم، يقال حالت الناقة حؤولاً وحيالاً إذا حمل عليها ولم تلقح).

وَصْفٌ للمقام بعقل راجح، وفكر نيّر، بأسلوب منطقيّ، وأسلوب الاستفهام والاستثناء مستفيداً من الأسلوب القرآني في قوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ (الرّحمن، الآيتان: 25– 26).

وربما من قول أصدق كلمة قالتها العرب قول لبيد بن ربيعة: (لبيد، 1962، ص 256)

**أَلا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللَّهَ باطِلُ وَكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زَائِلُ**

وفي الختام لابُدّ من وضع حكم مسكين في الميزان، إذ إنّ المتفقّد لأدب الحكمة عند الأدباء يمكنه أن يميّز بين نوعين من الحكمة.

**النّوع الأول:** يقتصر على اختيارات المرء، دون كبير عناء بمبناه، فتكون حكمه حينئذ سطحيّة ساذجة لأنّها نابعة عن رؤية ضيّقة محدودة بحدود التّجربة الأحاديّة.

**والنّوع الآخر:** ما يستوحي من واقع الحياة الخاصة للأديب وحياة الآخرين، ومن الثّقافة الفكريّة، وما يتوافر عليه من مخزون معرفيّ، فتأتي الحكمة وقتئذ– غالباً– مدعومة بمؤثّر عقليّ؛ إقامة للدّليل، وتأكيداً لوجاهة المعنى، وصدق الفكرة فتصل بالمتلقّي إلى حالة من الإقناع.

وحكم مسكين قد تُنسب إلى النّوع الثّاني، إذ إنّ حكمه تتوافر على شيء من خصوبة التّجارب وتنوّعها مع ارتباطها بثقافة الشّاعر، وإمكانياته العقليّة والنّفسيّة، الأمر الّذي يجعلها يمتزج فيها العقل بالشّعور والموضوعيّة الذاتية " موضوعيّة في أساس الفكرة ومنطقها من الوجود الواقعيّ المحسوس وذاتيّة في إخراجها بالصّور وتلوينها بألوان الخيال والتّصوّر". (عاصي، 1970: 112)

وهذا لا يعني أنّ كلّ حكمه تتوافر على هذا المستوى الرّاقي المؤثّر فهي تعالج موضوعات عادية، فمعظمها يدور حول ما يخضع للتّجربة، وما هو نتيجة الخبرة بالحياة، وكذلك ما يؤكّده واقع الحياة الخاصّة وحياة الآخرين، وفيها إقامة للحجّة والبرهان ليؤكّد صدق أفكاره، ليصل بالمتلقّي إلى حالة من الرّضا والتّسليم بالقضية المطروحة، فتجتمع الحكمة في داخلها بين المقدّمة والنّتيجة في آن

واحد، فهي تتأرجح بين سداد العقل، وتتجمّل من صور البيان، تغوص في أعماق الطّباع وتصف الأوضاع بعقل راجح وفكر رزين، ولِمَ لا فهو– على ما يبدو– خبير بأحوال النّاس ونزعاتهم وطباعهم، وهو يحسن بالتّأكيد التّفهم لمعنى الاستقامة والاعوجاج، ومعنى الرّذيلة والفضيلة، والعوامل الّتي تصدر عنها أعمال النّاس في خيرها وشرها، فيعمل على معالجتها.

فهذه الحكم الّتي صدرت عن تجارب خاصّة ضمّنها أحياناً بوقائع محدّدة في حياته، قد خرجت من هذه الدّائرة الضّيقة إلى دائرة فسيحة حاول فيها أن يضفي عليها الطّابع الإنساني، ويمكن القول أنّه جارى من سبقوه في حكمه وتأثّر بأسلوب القرآن الكريم وألفاظه ومعانيه ولو بقدر.

لذا كان أسلوبه أقرب إلى الأسلوب التّعليميّ التّربويّ الوعظيّ في هدوء ورصانة، وذلك في الوزن الشّعريّ، وفي حسن اختيار الألفاظ والعبارات، وفي الوضوح الفكري والسّهولة الأدائيّة، فهو يرمي بالدّرجة الأولى إلى النّفع، ثم إرضاء الفن الصّافي والحاجة الشّعرية في

## المبحث الثّاني: الفخر في شعر مسكين.

### الفخر لغة:

" الفَخْرُ والتّفَاخَرُ التّعظّم، فَخَرَ فَخْراً وتَفَخُّر وقيل تكبّر وتعظّم، قال الأصمعي: يُقال من الكِبْر والفخر فخر الرّجل، ورجل متفخر أي متعظّم، ويُقال هو يتفخر علينا " (ابن منظور، د.ت : 2 / 532).

### الفخر اصطلاحاً:

ضرب من الحماسة وهو التّغنّي بالفضائل والمُثل العليا والتّباهي بالسّجايا النّفسية، والزّهو بالفعال الطّيبة، وقد ارتبط غالباً بالشّجاعة والكرم والوفاء والعفّة والحلم وكرامة الأصل والحسب والنّسب وحماية الجار والنّزيل ومنع الحريم (يُنظر، د. الجبوريّ، 1993: 173).

يُعدّ الفخر من أوّل فنون الأدب تأثيراً على فطرة الإنسان ويكون بتعداد الصّفات الكريمة ونراه يرتبط غالباً بالشّجاعة والوفاء والحلم، وعراقة الأصل وحماية الجار والنّزيل ومنع الحريم.

وقد كان الشّاعر الجاهليّ يؤثّر قومه في الفخر، وينسب إلى قبيلته كل فضيلة، ويشيد بأمجادها، ويُعلي من شأنها بين القبائل الأخرى، ويتحدّث من خلال فضائل قومه، فيجمع كلّ خصال الخير والشّرف والكرم والمروءة والحلم وحسن البلاء، فهو لسان حال قبيلته ومؤرّخ أمجادها.

وعندما أشرقت شمس الإسلام بنور ربّها كانت أشعار الفخر والحماسة في صدر الإسلام أكثر الأغراض الشّعريّة صلة بالإسلام لما للجهاد من مكانة في الحياة الإسلامية، إذ كان معظم الشّعراء من الأبطال المحاربين، الّذين شاركوا في المعارك بسيوفهم وألسنتهم، وقد تطوّر هذا الغرض على يد الإسلام تطوّراً كبيراً، فلم يَعُد هناك من يفخر بإعلاء كلمة القبيلة، بل أصبح الفخر لإعلاء كلمة الله- ﷻ -، وصار الفخر بالشّهادة في سبيل الله، وفي تأييد الملائكة بجنود الله، وبانتصار المؤمنين الصّادقين، يقول كعب بن مالك: (كعب بن مالك الأنصاريّ، 1966: 84)

**ويومَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ فيهِ مَعَ النّصْرِ مِيكَالٌ وجِبْرِيلُ**
**إنْ تَقْتُلُونَا فَدِينُ الحقِّ فِطْرَتُنَا والقَتْلُ في الحقِّ عِنْدَ اللهِ تفضيلُ**

وقال حسّان بن ثابت مفتخراً: (حسّان بن ثابت، 1994: 268)

**للَهُ أكرَمَنا بِنَصرِ نَبِيّــِهِ وَبِنـا أَقامَ دَعائِمَ الإِسلامِ**
**وَبِنا أَعَزَّ نَبِيَّهُ وَكِتابَهُ وَأَعَزَّنــــا بِالضّــربِ وَالإِقــدامِ**

أي إنّ الفخر تحوّل من فخر القبيلة إلى فخر بالدّيانة، فدانت للمسلمين ممالك الفرس والرّوم، واستمر الحال في عصر بني أميّة، فقد كان شعر الفخر والحماسة أقوى في تأثيره بالإسلام من شعر الهجاء والمديح إذ كان يُنظم أكثره في الجهاد.

وبعيداً عن هذا الفخر ندلف إلى آخر ظهر على مسرح الأحداث بقوّة بتأثير عودة العصبيّة القبليّة الجاهلية الّتي أطلّت بوجهها البشع عند بعض الشّعراء وكأن الشّاعر مازال يعيش في عصر ما قبل الإسلام بكلّ قيمه الخُلقية وعصبياته القبلية. يمضي في متاهات من الأحداث، والأنساب المتشابكة والوقائع القبلية الموغلة في القدم.

وقد أسرف هؤلاء الشّعراء في هذا العصر عن الحديث عن الأيام والأنساب، والآباء والأجداد، مصوّرين مفاخر يُفترض أنّها انقضت، أو ضعف شأنها، بما أحدثه الإسلام من تطوّر حضاري.

**الفخر عند مسكين:** غطّى الفخر عنده جزءاً كبيراً من ديوانه، إذ افتخر بعدّة أمور منها:

**فخره بنفسه وحسبه ونسبه:**

افتخر بعشيرته الأقدمين في مثل قوله: (مسكين الدّارميّ، 1970: 38)

**إن أَدْعَ مِسكيناً فإنّي ابن مَعْشَرٍ مِن النَّاسِ أَحْمي عَنْهُم وأَذُودُ**

ولِمَ لا فهم الملوك مكانة وهيبة ووقاراً، أمجادهم عظيمة واضحة للبيان تسرّ النّاضرين، فهي كالبدر بهاءً وجمالاً وعلواً، وفي ذلك يقول: (مسكين الدّارميّ، 1970: 59)

**ما عِلَّتي قومي بَنو عُدُسٍ وَهُـمْ المُلُوكُ وخالِيَ البِشْرُ**
**عَمّي زُرارَةُ غَيـر مُنتَحَـلٍ وأَبِي الّذي حُدِّثته عَمْرُو**
**في المَجْـدِ غُرَّتُـا مُبَيَّنَـةً للنَّاظِـرينَ كَأَنَّـهـا البَدْرُ**

تصوير لفخر قبليّ مقيت تمجّه الأذواق المؤمنة إيماناً راسخاً، وتُقبل عليه الأذواق المريضة الّتي أُبتليت بداء العصبيّة في هذه الفترة لتشبع رغبتها، وتسير في ركب هؤلاء الّذين ساروا على غير هدى في ظلمات الغواية وظلام العصبيّة بعيداً عن نور الهدى.

إنّه يساير شعراء عصره، بل شعراء قبيلته وعشيرته الأقربين وعلى رأسهم الفرزدق، الّذي أسرف في نقائضه بفخره بآبائه وأجداده (يُنظر، الفرزدق، 1997: 548– 555)، من أجل عرض زائل، ومتعة زائفة لا يقبلها القاموس الإسلاميّ، ولا تزن شيئاً في الميزان الرّبانيّ.

ألم يعلم أنّ الرّسول– ﷺ – دعا إلى نبذ العصبيّة، فإنّها منتنة ؟

لِمَ لم ينته وهو النّاسك المتعبّد ؟ !

ألم يستمع إلى قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾** (الحجرات، الآية: 13).

لِمَ لم يفتخر بالدّيانة، وافتخر بالنّسب والقبيلة؟

أسار على درب الجاهليين؟ أم امتطى صهوة معاصريه وانطلق في مضمار العصبيّة، وأقحم نفسه في معارك الأنساب المتشابكة والبطولات الفائتة، والنّعرات الزّائفة؟ ألم يعلم أنّ النّابغة الجعديّ عندما وفد على رسول الله – ﷺ – معلناً إسلامه سنة تسع للهجرة أنشده قصيدة يقول فيها:

**بَلَغنا السَّماءَ مَجدَنا وَجُدُودَنا وَإنّا لَنَرجُو فَوقَ ذَلِكَ مَظهَرا**

فقال له الرّسول الكريم – ﷺ–: أين المظهر يا أبا ليلى؟ فأجابه: الجنّة (الأصفهانيّ، 1992: 1956 5 / 8، والقرشيّ، 2012: 33).

كان أولى بهذا العابد المتنسّك أن ينته عن مثل هذا الفخر، ويفعل ما فعل النّابغة ويضع نفسه وقومه في الميزان الرّبانيّ.

ومع ذلك فإنّه لم يعمد إلى المبالغة والتّهويل، وإطلاق الخيال الخصب، بل التزم في فخره بالحقائق التّاريخيّة، حيث يقول مفتخراً بآبائه وأجداده، مشيراً إلى المعاني السّابقة نفسها في قصيدة بلغت أربعين بيتاً في منافرته لعبد الرّحمن بن حسّان بن ثابت:(مسكين الدّارميّ 1970: 85– 90)

**أَبي مُضــــرُ الَّذي حُدِّثت عنهُ وَكــلّ رَبيعـــةِ الأمريــن خَالِي**

**وإنّي حين أَنسَبُ مِن تميم لَفـــي الشُّمِّ الشَّماريخِ الطّوالِ**

**وآبائي بنــو عُــدس بن زيد وَخَالِي البِشْرُ بِشْرُ بَني هلال**

**كَسَاني غُرَّتي عمرو بنَ عمرو وردّانّـــي زُرارةُ بِالفِعَـــالِ**

**كَفـاني حَاجِبُ كِسْـرَى وقومـاً هُمُ البيضُ الكرامُ ذوو السِّبالِ**

(الشماريخ: جمع شمروخ، وهو الغصن الدّقيق الرّخص ويريد به الأنساب العالية. السّبال: يقال سبلة الرّجل وهي الدّائرة الّتي في وسط شفته العليا والمراد بها هنا الشّارب).

وقد ضرب على وتر حساس حين افتخر بالقعقاع بن عمرو بن مالك التّميمي أحد أبرز الأبطال الفرسان الّذين أبلوا بلاءً حسناً في الجاهليّة والإسلام، إذ سطّر بحروف من نور ملاحم البطولة والجهاد، وصال وجال في معركة القادسية الفاصلة، فقال مفتخراً بأنّه من قبيلته الّتي كان لها أمجاد عظيمة منها: (مسكين الدّارميّ 1970: 87)

**وَكانَ الحَازمُ القعقاعُ منَّا لزازَ الخَصْمِ والأَمرِ الفِصالِ**

( لزاز الخصم : شديد الخصومة، لازم لها، موكل بها يقدر عليها).

ويمضي معدّداً أمجاد قبيلته وأبطالها، ومنهم جدّه شريح فارس النّعمان، وخاله ندمان ابن جفنة، فهم يرفضون الذّل والهوان، والموت أهون عليهم من سبي النّساء، وفي ذلك تأكيد على أنّه يجاري شعراء ما قبل الإسلام، فهي أنماط مكرّرة .

ويبدو أنّه أحسن صنعاً حين افتخر بأنّهم يُنسبون إلى بيت النّبوّة، إذ قال(مسكين الدّارميّ 1970: 88):

**تَعال إلى النّبوَّة مِن قُرَيْشٍ وأكْرِمْ مَنْ علا سُقَب الرّحالِ**

وقال يفتخر بشجاعة قومه مقلّداً من سبقوه من شعراء ما قبل الإسلام:(مسكين الدّارميّ 1970: 76)

**والصَّدَأُ المُسَـوَّدُ أطيبُ عِنْدَنَـا مـن المِسْكِ دافَتْهُ الأكُفُّ الدَّوائِفُ**
**وتُضْحِكُ عِرفانُ الدُّروعِ جُلودَنَـا إذا جاءَ يومٌ مُظْلِمُ اللَّونِ كاسِفُ**
**تَغْلَقُ في مِثْلِ السَّوارِي سُيوفُنا ومـا بينها والكَعْبِ منَّ تفائِفُ**
**جَمَاجِمُنَـا يـوْمَ اللِّقَـاء برأسِنـا إلى المـوْتِ تَمْشِي ليس فيها تَجانُفُ**

لا ندري أيُريد أن يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولاً، تيهاً وفخراً ؟ أنّه يفخر بقبيلته تميم، ولم يفتخر بدينه الإسلام، يحاول أن يبلغ الجبال طولاً، يعانق بمنكبيه قطع السّحاب، يحلّق في فلك العصبية المقيتة، والرّدة الجاهلية المنبوذة، هل هذا يعني أنّه لم يواكب التّطوّر الّذي طرأ على حياته الدّينية في عصر بني أمية؟

من المعلوم أنّ الإسلام أضاء قلوب أتباعه بمثاليّة روحية كريمة تقوم على نبذ الحياة القديمة إلى حياة جديدة طاهرة كلّها عبادة لله وتقوى وهدى، ومجاهدة للنّفس حتّى ترفض عرض الدّنيا الزّائل، وتطلب النّعيم الأخروي الخالد، لذا كُتب الشّعر الأمويّ في ظلال نفسيّة آمنت بربّها، واستشعرت حياة التّقوى والصّلاح، والزّهد والعبادة، فقد ارتدى بعض الشّعراء عباءة الزّهد، ووقر الإيمان في قلوبهم وصدّقه عملهم (يُنظر، د. ضيف، 1959: 62)، ومنهم شاعرنا الزّاهد العابد، الّذي آمن وعمل صالحاً، ولكن لم يواكب التّطوّر الّذي طرأ في هذا العصر في بعض فخره، إذ افتخر بحسبه ونسبه، بقبيلته وعصبيته، لا بدينه وأدبه وأخلاقه، وتقواه وزهده، فهل هذا تناقض في شخصيته؟ لماذا اكتفى بفخره بحسبه؟ هل في ذلك مجاراة لبعض شعراء قبيلته؟ هل كان معجباً بمثل هذا الفخر؟ هل نظم شعراً افتخر فيه بتقواه ولم يُكتب له البقاء، وضاع أدراج الرّياح، وكان مصيره الفناء؟ أسئلة تطرح نفسها في ظل إيمان قوي لهذا الشّاعر بالإيمان بالقضاء والقدر خيره وشرّه، وأنّ العسر يتبعه يسار في مثل قوله: (مسكين الدّارميّ، 1970: 31)

**وأقطعُ الخَـرْقَ بالخَرْقَـاءِ لاهِيَـةً إذَا الكَـواكبُ كَانتْ في الدُّجَى سُرُجَا**
**مـا أَنزلَ اللَّهُ مِن أَمـرٍ فأكرهُهُ إلا سَيَجْعَـلُ لي من بَعْـدِهِ فَرَجَا**
**ما مدَّ قَوْمٌ بأيديهِم إلى شَرَفٍ إلاَّ رأوْنَـا قِيامَـاً فَوْقَهُـمْ دَرَجَـا**
**لم يجعلِ اللهُ قَلبي حينَ يَنْزِلُ بِي هـمٌ تضَيَّقَني ضيقـاً ولا حَرَجـا**

(الخرق: الفلاة الواسعة، والخرقاء: النّاقة).

وحرص شديد على المحافظة على أمجاد آبائه وصولاً إلى أعلى درجات المجد والعُلا في مثل قوله الحسن: (مسكين الدّارميّ، 1970: 28– 29)

**وإنَّ لنا رَبْعيَّةَ المَجْدِ كُلَّها     مَوارِثُ آبــاءٍ كِــرَامٍ وَرِثْتُها**
**إذا قَصَّرَت أَيدي الرِّجالِ عن العُلَا     مَدَدْت يــدي باعـــاً فَنِلْتُهـــا**
**وداعٍ دَعــاني لِلْعُــلَا فأَجَبْتَــهُ     وَدَعْــوَةُ داعٍ في الصَّديقِ خَذَلْتُها**

(ربعي كل شيء: أوّله).

على كل حال كان في فخر شاعرنا ردّة جاهليه، وعودة للعصبيّة القبلية، فهو فخر جاهليّ في ألفاظه ومعانيه وأساليبه، فخر لا مبالغة فيه، لأنّ شرف آبائه وأجداده قد مهّد له سبيل القول بالفخر بكل صدق وواقعيّة، ولكن يُؤخذ عليه أنّه لم يفتخر بدينه وتقواه ، وافتخر بحسبه ونسبه.

**فخره بعفّته:**

للعفّة فضائل منها: الحياء، والدّعة، والصّبر، والسخاء، والقناعة، والدماثة، والانتظام، وحسن الهوى، والمسالمة، والوفاء، والورع (يُنظر، ابن مسكويه، 1981: 20– 21).

طالما افتخر شعراء ما قبل الإسلام بالعفّة، عفّة النّفس، والحشمة والحياء عند النّساء، والحياء وغض الطّرف عن الجارة، والصّبر على الجوع والقناعة، والعفّة عن الكلام القبيح.

عند التّأمّل في فخر شاعرنا بعفته نجده يحاكي هؤلاء الأقدمين، ويتّبع سنّتهم، ولكنّه واكب التطوّر الّذي طرأ على هذه القيمة الخُلقية في بعض فخره بها، ومن مظاهر فخره بعفّته فخره بعفّة نفسه، وصبره على الجوع والفقر.

افتخر بعفّة نفسه في غير موضع من ديوانه، في مثل قوله:(مسكين الدّارميّ، 1970: 25)

**سُمِّيتُ مِسْكينـاً وَكانَت لجَاجـةُ     وإنّـي لمَسكيـنٌ إلى اللّهِ راغِـبُ**
**وإنّي امرؤٌ لا أَسْأَلُ النَّاسَ مالَهُمُ     بِشِعْــري ولا تَعْمَـــى عليَّ المَكَـــاسِبُ**

تتجلّى عفة النّفس عند المرء عندما لا يسأل النّاس مالهم بشعره، كما يفعل الآخرون الّذين يريقون مياه وجوههم طلباً لمزيد من العطاء من الخلفاء.

ولكن لماذا طلب هذا الشّريف السّيد في قومه العطاء من الخليفة معاوية بن أبي سفيان؟ أهو شاعر يقول ما لا يفعل؟ أم يطلب لحاجة في نفس يعقوب؟ أم لفاقة؟، هل كان قليل المال؟ (يُنظر

الأصفهانيّ، 1992: 1956 221/20، 226)، هل يُلتمس له العذر في ذلك بخاصّة أنّه يؤكّد بأنه لا يمدّ يده للآخرين، ولا يلج البيوت لحاجة، إذ يقول: (مسكين الدّارميّ، 1970، 27 – 28)

**وأَصْلِحُ جُلَّ المَالِ حَتَّى تَخَالُنِي شَحيحــاً وإن حَقّ عرانـي أَهَنْتُها**

**وَلَسْتُ بـولاَّجِ البُـيــوتِ لِفاقَـةٍ ولكنْ إذا اِسْتَغْنَيْتُ عَنْهَا وَلَجْتُها**

قد يُعنى السّيد في قومه بالتّصعلك والغنى، وكذا الدّهر في أيامه العسر واليسر، فيكون لزاماً عليه التّجلّد والصّبر، والعفّة عند المتربة والخصاصة، فلا خير فيمن يعفّ لدى العسر، لذا نجد مسكيناً يعبّر عن عفته في الجوع والفقر في أبيات نحسبها رائعة، إذ يقول:(مسكين الدّارميّ، 1970: 64)

**وَلَسْتُ إذا ما سرَّني الدَّهرُ ضَاحِكاً ولا خاشِعاً ما عِشتُ من حَادِث الدَّهرِ**

**وَإنّــي لأستَحْـي إذا كنتُ مُعْسِـراً صَديقي وَإخواني بِأَن يَعْلَمــــوا فَقْري**

**وَمَنْ يَفْتَقِرْ يعلَم مَكَانَ صَدِيْقِهِ وَمَنْ يَحْيَى لا يَعْدَمْ بلاءً من الدَّهرِ**

لا ننسى أنّ الفطرة السّليمة فرضت على العربي المعدم أن يكون عفيف النّفس، يبيت على الطّوى، لينال مأكلاً كريماً.

وصاحب الخُلق الكريم لا يتأثّر بالفقر والغنى سلباً أو إيجاباً ، فإذا ابتسم له الدّهر لا يزداد بأواً على الآخرين، ولا يزري الفقر بحسبه، ولا يؤثّر على عزّة نفسه وكرامته، بل يزيده كرامة وحياءً وعزّة، ويُحسب غنيّاً من التّعفّف.

ولأنّه كريم الخُلق، عزيز النّفس افتخر برفضه الذّل والهوان حين قال: (مسكين الدّارميّ 1970: 27)

**وَرُبَّ أُمُورٍ قَـــدْ بَرَيْـتُ لحَاءَهَـــا وَقَوَّمتُ مِنْ أَصْلابِهَا ثمّ زُعتُها**

**أُقــيــمُ بدارِ الحَـربِ مَا لَم أَهُـــنْ بــهـا فإن خِفْتُ من دارٍ هوانــاً تَرَكْتُهَا**

وفي ذلك محاكاة لشعراء ما قبل الإسلام وعلى رأسهم صاحب لامية العرب المشهورة، الّتي تعلّمنا منها بعض مكارم الأخلاق.

**الحياء وغضّ الطّرف عن الجارة :**

لعلّ أروع ما قيل في الحياء وغضّ الطّرف عن الجارة في هذا العصر قول مسكين: (مسكين الدّارميّ، 1970: 60– 61)

**مَا ضَرَّ جَارِي إذْ أُجاوِرُهُ أَن لا يَكـونَ لِبَيْتِه سِتْرُ**

**أَعمى إذا مَا جَـارَتِي خَـرَجَتْ حَتىَّ يُــواري جَـــارَتِي الخِـــدْرُ**

**وَيَصُـمُّ عمّـا كــان بينهُمـا سَمْعي وَما بي غَيْرُه وَقْرُ**

وليس ذلك بدعاً، فقد غضّ العربي من بصره عن جارته، وعطّل سمعه عن سماع حديثها، إذ افتخر غير شاعر في عصر ما قبل الإسلام بذلك (يُنظر على سبيل المثال عنترة بن شداد، 2001: 71، 76، وحاتم الطّائيّ، 1953: 74، 92– 93)، معبّرين عن حياء فطريّ متأصّل في النّفوس.

ومن نافلة القول: إنَّ الأخلاق ترتبط بالسّلوك الإنسانيّ؛ فهي تحمل في مضمونها عاداتٍ وقيماً وأفعالاً ينبغي على المرء التّحلّي بها في حياته، والدّين يحتوي على مبادئ سامية، وقواعد ثابتة، وقيم أخلاقية تدعو إلى طهارة النّفس وهذا يدل على مدى ارتباط الدين بالأخلاق، فالأخلاق جزء لا يتجزّأ من الدّين، فهما من مشكاة واحدة، ومغزاهما واحد.

وقد أجاد شاعرنا وأفاد حين واكب التّطوّر الّذي طرأ على الحياة الدّينية في هذا العصر، فهذه القيمة الخُلقية(العفّة) تطوّرت وازدادت عمقاً وسموّاً، واكتسبت النّموذجية حين اتّصلت بالإسلام، لأنّه يمنحها الامتداد والعمق؛ لأنّها موصولة بالكمال الإلهيّ المطلق.

وقد عبّر الدّارميّ عن غضّ البصر بالعمى لذا كان قوله أرقى من قول عنترة بن شدّاد في الامتثال للمروءة ومكارم الأخلاق: (عنترة بن شدّاد، 2001: 71)

**وَأَغَضُّ طَرفي ما بَدَت لي جارَتي حَتّـى يُواري جـارَتي مَأواهــا**
**إنّي اِمـرُؤٌ سَمحُ الخَليقَـةِ ماجِـدٌ لا أُتبِعُ النَفسَ اللَجوجَ هَواها**

لأنّه كان أكثر تضحية للقيمة الخُلقية حين عطّل حاسة البصر من أساسها، على حين ألغى ابن شدّاد وظيفتها فقط.

وقال في قصيدة أخرى: (مسكين الدّارميّ، 1970: 29)

**وإنّي سألقَى اللهَ لَم أرْمِ حُرَّةً وَلَم تتمنَّ يومَ سرٍّ فَخُنْتُها**

ولأنّ الحياء شعبة من شعب الإيمان، افتخر بحيائه في، مثل قوله: (مسكين الدّارميّ، 1970: 71)

**وإنّي امرؤ مِنّي الحَياءُ الّذي تَرَى أَعِيشُ بأَخْــلاقٍ قَليــلٍ خِدَاعُهَا**

وافتخر بعفّة لسانه، إذ قال: (مسكين الدّارميّ، 1970، 62)

**وإنّي لا أَقــومُ على قَنَاتِي أَسُبُّ النَّاسَ كَالكَلبِ العَقُورِ**

أغلب الظّن أنّه كان صادق اللّسان، صادق القلب في فخره بعفّته، بخاصّة أنّه أنهى حياته متنسّكاً، ملازماً المسجد، رامياً بكل ملذّات الدّنيا ومغرياتها، ساعياً وراء الصّلاة والعبادة.

**فخره بكرمه:**

فرضت الظّروف الطّبيعيّة القاسية، والقيم النّبيلة على العربيّ أن يكون جواداً، فقد عاش في كَبَد، يجوب الفيافي والقفار، يقطع المهامة والمفازات بحثاً عن الماء والكلأ، فإمّا أن يكون ضيفاً عزيزاً أو مضيفاً كريماً، وقد ضرب الأجواد أروع الأمثلة في المشاركة الوجدانيّة، وفي إذابة الفوارق الاجتماعيّة في مدّ يد العون للأرامل والمعوزين، لرفع معاناتهم وإدخال السّرور في أنفسهم.

وقد تأصّلت هذه القيمة الخُلقيّة في نفوسهم، لدرجة أنّ الغني والفقير على حد سواء في الكرم، فجهد المقل والمكثر في الغنى سيّان في الجود، فالفقير الّذي يبذل كلّ ما يملك وهو في أمسّ الحاجة إليه ينتصر بكرمه على غريزتين قويتين هما: حبّ البقاء وحبّ التّملّك، وهو بذلك يبرهن على كرم أخلاقه ورفعة مكانته، وقوّة عزيمته، لأنّه يرقى بنفسه إلى درجات الكمال والمروءة (يُنظر، الدّسوقيّ، د. ت، 72– 73).

وقد كان للكرم في عصر ما قبل الإسلام حوافز كثيرة منها:

–تحقيق الثّناء والحمد لصاحبه، والخوف من الذّم، وهو عادة حسنة، وعنوان الفضيلة، وصون للعرض، ووسيلة من وسائل السّيادة.

وكانت له غايات تمثّلت في رفع المعاناة عن البائسين، ومدّ يد العون للمحتاجين ذوي المقربة، وقد ضرب الصّعاليك أروع الأمثلة في المشاركة الوجدانيّة، والمروءة.

–فكّ الأسرى، فالعربيّ كان يجود؛ لأنّ الجود كان يشبع في نفسه رغبة، ويدخل عليها مسرّة، وهذه هي الغاية القصوى في تربية الفضيلة.

**وكان للكرم آنذاك مظاهر منها:**

– بسط الوجه ومضاحكة الضّيف، وإطالة الحديث.

– أفضل ما يُقدّم للضّيف شحم السنام، واللّبن.

– السّخاء على الأرامل واليتامى والبائسين.

**دعوة الأضياف بشتى الوسائل منها:**

- إيقاد النّار على الرُّبا والجبال ليلاً.
- تعويد الكلاب على الضّيوف.
- إبراز القدور في الفضاء " نصب الجفان الواسعة ".

سار مسكين على نهج الأقدمين، وكأنّه يستجيب لنداء الفطرة والإنسانيّة، فكان يكرم الضّيف النّازل عندما يرخي اللّيل سدوله، يقول مفتخراً: (مسكين الدّارميّ، 1970: 82، ويُنظر: 84)

**أَتى يَخْبطُ الظّلماء وَاللّيلُ دامِسُ يسائلُ عَنْ غَيْرِ الّذي هو آمِلُ**
**فقلت لَها: قُومي إليه فيسِّري طَعاماً فإنَّ الضَّيفَ لا بُدَّ نازِل**

وافتخر بإكرام جاره ، ذكر صاحب الأغاني، 1992 أنّ مسكيناً كان ينشد قوله في قومه: (مسكين الدّارمي، 1970: 58)

**إن أدْعَ مسكيناً فما قَصَّرتْ قِدْري بُيوتُ الحَيِّ والجُدْرُ**

فوقفت زوجه وقد كانت مبغضة له كثيرة الخصومة عليه تسمع حتىّ إذا بلغ قوله: (مسكين الدّارمي، 1970: 59)

**ناري ونَارُ الجَارِ وَاحِدةٌ وَإليهِ قبلي تُنْزَلُ القِدْرُ**

فقالت له: "صدقت والله ، يجلس جارك فيطبخ قدره، فتصطلي بناره، ثمّ ينزلها فيجلس يأكل وأنت بحذائه كالكلب، فإذا شبع أطعمك، أجل والله، إنّ القدر لتنزل إليه قبلك، فأعرض عنها" (الأصفهانيّ، 1992: 1956 20/229– 230).

وفي رواية أخرى : " ذكر بعض الرّواة أنّ امرأة مسكين خاصَمتْه ونسبَتْه إلى البخل، فقيل لها: أليس هو القائل؟

**ناري ونَارُ الجَارِ وَاحِدةٌ وَإليهِ قبلي تُنْزَلُ القِدْرُ**

فقالت: صدقَ، النّار والقدر لجاره، وإليه تُنزل قبله لأنّه صاحبُها؛ وهو أيضاً لا يشعل ناراً مخافة أن يراها ضيفٌ فيأتيَها، فعجب كلّ من حضر لتأتِّيها وحسن جوابها "(الخالديان، 1965: 66/1، المرتضي، 1954: 474/1).

في هذا الخبر – إن صدقت زوجه – ما يؤكّد لنا شحّه وبخله، وفي شعره ما يؤكّد لنا شدّة غدقه وسخائه على الآخرين، ولعلّه كان عالماً بذاته ضنيناً، ويحلم شعراً بأنّه عكس ما هو كائن

عليه فعلاً، أو لعلّه يحاول سدّ هذه الثّغرة أمام النّاس بإعلانه عن جوده وكرمه من خلال شعره (يُنظر مسكين الدّارميّ 1970: 8)، وقد يكون في ذلك إشارة على أنّه من الشّعراء الّذين يقولون ما لا يفعلون، فهل هو منهم حقاً؟! وما يُدريك.

أغلب الظنّ أنّه لم يبذل أي جهد للابتكار والتّجديد لمواكبة العصر الجديد، وبيان أنّ إكرام الجار واجب ديني بجانب أنّه واجب إنسانيّ، وقد مضى يذكر بعضاً من مظاهر الكرم الّتي طالما تغنّى بها من سبقه من الشّعراء، فقال في بسط الوجه ودعوة الضّيف بإيقاد النّار: (مسكين الدّارميّ، 1970: 84)

**إذا مُتُّ فَانْعَيِنِي لأضيافِ شُقّةٍ ... رمَى بِهِمُ دَاجٍ بَهِيمُ الغَيَاطِلِ**
**يَشُبُّ لَهُم ناري فَيُعْرَفُ ضَوْءُها ... وَيُحتَلُّ بَيْتِي بِالفَضَاءِ المُقَابِلِ**
**وَلَسْتُ بوقّافٍ إذا الخَيْلُ أسْرَعَتْ ... ولَسْتُ بِعبّاسٍ إلى الضَّيفُ باسِلِ**
**وَلِكنَّهُ يلقَاهُ منّي تَحيَّةً ... ويأتِيهِ قَبْلَ العُذر بَذْلي ونَائِلي**
**ويَلْقَاهمُ وَجْهي طَلِيقاً وعَاجِلاً ... قِرايَ ومِنْ خَيْرِ القِرَى كلُّ عَاجِلِ**

وعن مضاحكته لضيفه قال: (مسكين الدّارميّ، 1970: 26)

**أُضاحِكُ ضيفي قبلَ إنزالِ رَحْلِه ... ويُخصِبُ عنْدي والمَحلُّ جديبُ**
**وَما الخَصبُ للأَضيافِ أَن يُكثر القِرَى ... ولكنَّما وَجْهُ الكَرِيْمِ خَصِيبُ**

واعتزّ بأنّه كان ينام مع ضيفه ويطيل الحديث معه في قوله: (مسكين الدّارميّ، 1970: 69)

**إذا ماتَ تَبصُ الشَّمسُ سَاعَةَ تَنْزِعُ ... فَإنّكَ والأضيافَ في بُردَّةٍ مَعاً**
**ولم يُلْهِني عَنْه غَزَالٌ مُقنَّعُ ... لِحَافِي لِحَافُ الضَّيفِ والبَيْتُ بَيْتُه**

فخر بالقِرى في مظاهره المادية الأولى، وأنماط مكرّرة عن مظاهر الكرم في صوره الجاهليّة قد يُحسّ في بعضها أحياناً شيئاً غير معناها الظّاهر، لكنّها في أغلبها مجرّد لبنات تسدّ فراغاً في ذلك البناء الشّعريّ(عبد القادر القط، 1979: 362)، وقد يكون ذلك أمراً طبيعياً لأنّ العربيّ ظلّ متنقّلاً بين البادية والحاضرة، يقيم في الخيام، ويوقد النّار، وينحر الجزور للغرباء، وكأنّ الشّاعر لا يحاكي شعراء ما قبل الإسلام، بل شعراء عصره الّذين لم يفكّروا في التّجديد ولا بيان الغاية من الكرم في ظلّ دين جديد يحثّ على الكرم، و يُبشّر بحوافز جديدة لا وجود لها من قبل لو ذكرها الشّعراء لطرأ تطوّر على هذه القيمة الخُلقية يواكب التطوّر الدّينيّ في هذا العصر، ولكن للأسف كان همّ بعض

الشّعراء المباهاة والمفاخرة والإسراف استجابة لنداء العصبيّة، لا نداء الإنسانيّة، ونداء التّطور والابتكار.

ومضى يُقلّد الأقدمين، فافتخر بصون عرضه، وحفظه وحمايته في مثل قوله: (مسكين الدّارميّ، 1970: 64)

**ولاَ جَاعِلاً عِرْضي لِمَالي وقايةً ولكنْ أَقي عِرْضِي فيُحْرِزُه وَفْرِي**

وله أبيات أخرى يقول فيها: (مسكين الدّارميّ، 1970: 78)

**أيّها السَّائِلُ عَمَّ قَدْ مَضَى هَلْ جَدِيدٌ مثلَ مَلْبُوسٍ خَلَقْ**
**أَنــا مِسْكِيــنٌ لِمَــنْ أَنْكَرَني ولِمَــنْ يَعْــرِفَني جِــدُّ نَطِــقْ**
**لا أبيعُ النَّــاسَ عِرضِي إنَّني لو أبيــعُ النَّــاسَ عِرضِي لَنَفَقْ**

كما افتخر بحفظ السّرّ، إذ قال في حسن حفظه للسّر: (مسكين الدّارميّ، 1970: 71–72)

**إذا ما خَليلي خَانَني وائتَمَنْتُهُ فَـذَاكَ وَدَاعيـه وذَاكَ وَداعُهـا**
**رَدَدْتُ عليــه وُدَّهُ وتركتُهـا مُطَّلَقَـةٌ لا يُسْتَطَـاعُ رِجَاعُهـا**
**وإنِّي امــرؤ مِنِّي الحيـاءُ الَّذي تَرَى أَعيـشُ بأَخــلاقٍ قَليــلٍ خِدَاعُهــا**
**أُوَاخي رجالاً لَسْتُ أُطِلـعُ بَعْضَهـمْ على سِرِّ بَعْضٍ غيرَ أَنّي جِماعُها**
**يَظُلُّونَ شَتَّى في البِـلادِ وسِــرُّهم إلى صَخـرَةٍ أَعْيَا الرِّجالَ انصِدَاعُها**
**لكـلّ امريءٍ شِعْبٌ مِن القَلـبِ فَارِغٌ وَمَوضِــعُ نَجْــوَى لا يُــرَامُ اطّلاعُهــا**

لا يكتم السّرّ إلّا من له شرف أصيل، وخُلق عظيم، وحياء عميم، والكريم الّذي تبقى مودّته يحفظ السّرّ، فالسّرّ عنده في بيت مغلق ضلّت مفاتيحه، والسّرّ عند كرام الناس مكتوم.

## الخاتمة:

**بعد هذه التّأمّلات في شعر مسكين توصّل البحث إلى النّتائج الآتية:**

1- ثمّة تناقض في أقوال شاعرنا وأفعاله، هذا الشّاعر الطّموح المعتزّ بنفسه، الزّاهد في آخر حياته، لم يصدق قلمه أحياناً، فهو يقول ما لا يفعل، فقد أفاد أنّه لا يقبل العطاء بشعره ، ولكنه أراق ماء وجهه وفعل ذلك لتحقيق أهداف ماديّة ومعنويّة، وقد تحقّق له ذلك، ربما فعل ذلك في مقتبل عمره، ثم انتهى فيما بعد.

2- لم يواكب في حكمه التّطوّر الدّينيّ والحضاريّ في عصره إلا بقدر، فجاءت بعيدة عن الجدّة والطّرافة راسفة في قيود التّقليد، لا تختلف عن النّمط الجاهليّ، فهي تعرض جانباً من الفلسفة الأخلاقيّة كما في حكم عصر ما قبل الإسلام، وتدور في إطار إنسانيّ عام، سادت فيها الرّوح الدّينيّة، وتحوّلت إلى لون من النّصيحة بأسلوب وعظيّ تعليميّ تربويّ في هدوء ورصانة.

3- توافر في حكمه شيء من خصوبة التّجارب وتنوعها ، فهي مستوحاة من واقع حياته وحياة الآخرين، ومن ثقافته الفكريّة، فيها إقامة للحجّة والبرهان للتّأكيد على صدق أفكاره، تصل بالمتلّقي إلى حالة من الاقتناع والرّضا وإن كانت بعيدة نوعاً ما عن العمق.

4- جارى الأقدمين في معظم فخره.

5- لم يفتخر بالدّيانة، وإنّما افتخر بالقبيلة، وفي ذلك ردّة جاهليّة، وتصوير للحاضر الّذي عاشه آنذاك، فقد أثّرت البيئة والظروف الاجتماعيّة في توجهاته، ومع ذلك التزم بالحقائق التّاريخيّة بكل صدق وموضوعيّة، ولم يعمد إلى المبالغة والتّهويل.

6- أجاد في فخره بعفّته، وطوّر هذه القيمة الخُلقيّة وزادها عمقاً وسموّاً وأكسبها النّموذجيّة، إذ كان أكثر تضحية حين عطّل حاسّة البصر من أساسها، على حين ألغى ابن شدّاد وظيفتها فقط، وأغلب الظّن أن كان صادقاً قولاً وفعلاً.

7- أبدع في فخره بكرمه، إذ حلم شعراً أنّه جواد كريم، وقد سلك نهج من سبقوه في ذلك، وهو قد يكون غير ذلك وكأنّه يريد أن يُغطّي على عقدة النّقص هذه بإعلانه عن جوده من خلال شعره.

## المصادر والمراجع:


* **القرآن الكريم ( المصحف الرّقميّ ) .**

1- ابن الأبرص، عبيد ( ت 555م). ديوانه، بيروت، 1384هـ، 1964م.

2- الأصفهانيّ، أبو الفرج علي بن الحسن بن محمّد القرشيّ (ت 356 ه).الأغاني، 1992، 1956، شرحه وكتب حواشيه الأستاذ: عبدا علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1412هـ- 1992م.

3- البخاريّ، الإمام أبي عبد الله محمّد بن إسماعيل(ت 256 ه). صحيح البخاري، طبعة جديدة مضبوطة مصحّحة ومفهرسة، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 142هـ، 2002م.

4- البغداديّ، 1967، عبد القادر بن عمر(ت 1093هـ). خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون، دار الكتاب العربي للطّباعة والنّشر بالقاهرة 1387هـ، 1967م.

5- ابن ثابت، حسّان(ت 54 هـ). ديوانه . شرحه وكتب هوامشه وقدّم له الأستاذ: عبدا مهنا ، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط2، 1414هـ، 1994م.

6- الجبوريّ، د. يحيى وهيب. الشّعر الجاهليّ خصائصه وفنونه، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، الطّبعة السّادسة، 1993م .

7- الجرجانيّ، عليّ بن محمّد( ت 816هـ). التّعريفات، دار الكتاب العربيّ، بيروت، 1996م.

8- الجوهريّ، إسماعيل بن حمّاد (ت 400هـ). الصّحّاح تاج اللغة وصحاح العربيّة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط 3، 1404هـ- 1984م.

9- حسين، د. سيد حنفي. الشّعر الجاهليّ، مراحله واتّجاهاته الفنيّة، الهيئة المصريّة العامة للتّأليف والنّشر، القاهرة ، 1971م.

10- الخالديّان، أبو بكر محمّد(ت 380هـ)، وأبو عثمان سعيد (ت 390- 391هـ). الأشباه والنّظائر من أشعار المتقدّمين والجاهليين والمخضرمين، حقّقه وعلّق عليه: السّيد محمّد يوسف، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر القاهرة، 1965م.

11- الدّسوقي، عمر. الفتوّة عند العرب، أو أحاديث الفروسية والمثل العليا، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، مطبعة لجنة البيان العربيّ،(د. ت).

12-ربيعة، لبيد(ت 40هـ). ديوانه، دار صادر، بيروت تحقيق إحسان عبّاس، ط الكويت، 1962م.

13- ابن رشيق، أبو عليّ الحسن(390- 456هـ). العمدة في محاسن الشّعر، وآدابه، ونقده، حقّقه وفصّله، وعلّق حواشيه محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دار الطلائع، 2006م.

14-ابن زيد العبّادي، عديّ (ت 590م). ديوانه، حقّقه وجمعه محمّد جبّار المعيبد، شركة دار الجمهورية للنّشر والطّبع، بغداد، 1965م.

15-أبو زيد القرشيّ، محمّد بن أبي خطاب(ت 170هـ). جمهرة أشعار العرب، دار صادر، بيروت، ط 3، 2012م.

16-ابن أبي سلمى، زهير(ت 609م). ديوانه، تحقيق: كرم البستانيّ، دار صادر، دار بيروت للطّباعة والنّشر، 1379هـ، 1960م.

17- ابن شدّاد، عنترة (ت 600م). ديوانه ، شرح: د. يوسف عبيد، دار الجيل، بيروت 1422هـ، 2001م.

18- الطّائيّ، حاتم بن عبد اله بن سعد الطائيّ(ت 578م) ديوانه، تحقيق وشرح: كرم البستانيّ، مكتبة صادر بيروت، 1953م.

19- ضيف، د. شوقي. التّطور والتّجديد في الشّعر الأمويّ، الطّبعة الثّانية، دار المعارف مصر، 1959م.

20- عاصي، ميشال. الأدب والفن، منشورات المكتب التّجاريّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط2، 1970م.

21- الغزاليّ الإمام أبو حامد محمّد بن محمّد(ت505هـ). ميزان العمل، حقّقه وقدّم له: د. سليمان دنيا، دار المعارف مصر، الطّبعة الأولى، 1964م.

22- الفرزدق، همّام بن غالب بن صعصعة (ت 110هـ). ديوانه، شرحه وضبط نصوصه وقدّم له: د. عمر فاروق الطبّاع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت - لبنان، ط1، 1418هـ، 1997م.

23- القط، د. عبد القادر. في الشّعر الإسلاميّ والأمويّ، دار النّهضة العربية للطّباعة و النّشر، بيروت، 1979م.

24- ابن مالك، كعب(ت 50هـ). ديوانه ، دراسة وتحقيق: سامي مكي العاني ، مكتبة النّهضة بغداد ، الطّبعة الأولى، 1385 هـ ، 1966م .

25- المثقّب العبديّ، العائذ بن محصن بن ثعلبة (ت 588م). ديوانه، عُني بتحقيقه وشرحه الشّيخ: حسن كامل الصّيرفي، جامعة الدّول العربية معهد المخطوطات العربية، 1391هـ- 1971م.

26- المرتضي، علي بن الحسين الموسوي العلويّ (ت436هـ). أمالي المرتضي غُرر الفوائد ودُرَر القلائد، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطّبعة الأولى، (1373هـ- 1954م).

27- ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمّد(ت 421هـ). تهذيب الأخلاق في التّربية، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط1، 1401هـ، 1981م.
28- مسكين الدّارميّ، ربيعة بن حنظلة بن مالك(ت 90هـ). ديوانه، جمعه وحقّقه: خليل إبراهيم العطيّة، عبد الله الجبوريّ، مطبعة دار البصريّ بغداد، 1389هـ، 1970م.
29- ابن منظور، جمال الدّين محمّد بن مُكرَّم الأنصاريّ(ت 711هـ). لسان العرب، طبعة مصوّرة عن طبعة بولاق، المؤسّسة المصريّة العامّة للتّأليف والأنباء والنّشر، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة، (د.ت).
30- نصر الله، حسن عبّاس.جمهوية الحكمة في نهج البلاغة، دار القارئ، بيروت، ط1، 1927م.
*موقع إلكتروني: النّويهيّ، د. عبد الرّؤوف: مسكين الدّارميّ وحقوق المرأة، ملتقى الأدباء والمبدعين العرب 2007/10/21م. http//www.almoltaga.com